الكتاب الثالث عشر

في ظلال القرآن

الشيخ سيد قطب

عرض الكتاب بقلم الشيخ/ جمال قطب

عدد المجلدات: ٦ مجلدات عدد الصفحات: ٤٠٢٠ صفحة.

الطبعة: الطبعة الشرعية الحادية عشرة (١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م) .

دار الشروق بيروت والقاهرة.

المجال: تفسير أدبي للقرآن.

١ـ المؤلف:

- شيخ أدباء عصره... سيد قطب هذا العالم الذي أثار جدلًا واسعًا وبلغ الاختلاف بين مادحيه وقادحيه بُعْدَ ما بين المشرقين... والغريب في الساحة الإسلامية أنه رغم مرور ١٤ قرنًا مازال النقد والتقويم في العالم الإسلامي بلا معايير ولا منهج، والخلط بين القول وقائله، والتربص بالمختلفين، بل إن كثيرًا من النقد في الدراسات الدينية ما يصنع معيارًا واحدًا لكل علوم الدين وفروعه فيعاملون الأخلاق والأعمال والأفكار بميزان الاعتقاد فإذا كل ما يخالف مذهبهم أو رؤيتهم هو في تصورهم كفر.

هذا أصل ظاهر مطرد في النسبة العالية من الأعمال النقدية فضلًا عن كيل كبير من القدح للمخالف أو المدح لأوليائهم.

٢ـ الكتاب: في ظلال القرآن:

صدرت الأجزاء الأولى من الطبعة الأولي في صورة كتيبات صغيرة في بداية الخمسينات وبعد مبايعة قطب لجماعة الإخوان وانتمائه إلى صفوفها.

كان ذلك خطوة طبيعية بعد إصداره لكتابي: التصوير الفني في القرآن الكريم ومشاهد القيامة في القرآن الكريم... ثم اعتقل المؤلف للمرة الأولي فأنجز أربعة أخماس المصحف ثم أفرج عنه فعاد لإتمام ما بدأ وتنقيحه حتى أن حجم الكتاب قد تضاعف في الطبعة الأخيرة ذلك أنه قد اعتضد بتفسير ابن كثير فنقل عنه ما يساوي ثلث حجم الكتاب.

ولقد كتب المؤلف كتابه بروح التيسير ومحاولة الولوج إلي عقول وقلوب أجيال طالما ابتعدت عن التفسير بسبب مطولات السابقين وازدحامها بما يصرف عن القرآن بغير داع لذلك جاء أسلوب الكتاب خاليًا من التعقيد والألفاظ المهجورة كذلك تجافى عن الإسرائيليات والروايات الضعيفة بتفسير القرآن وأظن أن المؤلف قد التزم هذا المنهج فدون خواطره ليصبح الكتاب مرجعًا لأعضاء الجماعة في مجال التفسير كما للجماعة مرجع في الفقه هو كتاب فقه السنة للمرحوم الشيخ سيد سابق.. والكتاب بعد ذلك أصبح مرجعاً حتى للمؤلف رحمة الله فقد استخرج منه القدر الأكبر من كتاب (معالم علي الطريق) وكذلك استخرج آخرون كثيرون منه ما أثبت مكانة الكتاب...غير أن الكمال ليس من صفة البشر خصوصًا إذا لم يشاور عقولًا أخري فوقع في الكتاب ما شابه من عيوب علمية ليست هينة علي التوحيد وعلم الفقه وهكذا فالكتاب غني بالخيرات رغم ما حواه مما يحتاج إلى تصحيح أو إزالة.

الظلال هو المرآة الكبرى لحالة المؤلف الإيمانية والنفسية بعد تحوله تلقاء الإسلام وما واجهته من صعاب لا تحتمل فقد صدر الكتاب في مرحلة تمثل تطورًا ضخمًا في حياة المؤلف إذ قد أعلن مبايعته لجماعة الإخوان المسلمين في مصر... وذلك بعد وفاة مؤسسها حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ وأقول تحولًا ضخمًا لأن الكاتب قبل هذه المبايعة لم يكن بعيدًا عن هذا التيار فحسب بل إن له كتابات ضد

الجماعة استوجبت عزم التنظيم الخاص للجماعة علي تصفيته وحين علم المرشد حسن البنا رفض هذا التفكير وأخبر المتحمسين أن كتابة سيد قطب ضد الجماعة لا تعتبر عداوة بل هي جهل بحقيقة الجماعة، وقال المرشد لهم إنه يشعر بقرب انضمام سيد قطب للجماعة ولسوف يصبح أحد جنودها المخلصين.

٣ـ المختار من الكتاب: الحياة في ظلال القرآن:

نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه، وتزكيه لقد عشت أسمع الله سبحانه يتحدث إلى بهذا القرآن... أنا العبد القليل الصغير... أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل؟

عشت - في ظلال القرآن - أنظر من علو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض... أنظر إلى تعاجب أهل الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال، وتصورات الأطفال، واهتمامات الأطفال كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال.

عشت أتملى في ظلال القرآن ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود... لغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني.

عشت - في ظلال القرآن - أحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله وبين هذا الكون الذي أبدعه الله، ثم أنظر فأرى تخبط البشرية وانحرافها عن سنن الكون ورأيت الوجود أكبر من هذا الظاهر المشهود، إن هناك عالم الغيب يجاور عالم الشهادة، عشت في ظلال القرآن، أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تكريم فعلته البشرية

إنه إنسان بنفخة من روح الله، مستخلف في الأرض من الله، مسخر له كل ما في الأرض من الله لذلك فالرابطة التي تجمع كل البشر لابد وأن تكون توحيد الله... فالعقيدة وطن المؤمن وهى قومه، وهى أهله.

والمؤمن ذو نسب عريق ينتمي إلى موكب كريم قاد خطاه آدم ونوح، وموسى وعيسى ومحمد هذا الموكب الإنساني الكريم عاش مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة وتجارب متشابهة لذلك كان الخروج من كل هذا طريقًا واحدًا هو منهج الله.

وعشت في ظلال القرآن أتعلم أن لا مجال للمصادفة:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

لذلك عشت هادئ النفس، مطمئن السريرة، قرير الضمير فالمنهج الإلهي - كما يبدو في ظلال القرآن - موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة، وفى كل حالة، والمنهج الإلهي هو الحق الأصيل: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وقد خلق الله الكون بالحق: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

والحق هو قوام هذا الوجود: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ويقرر المؤلف أن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعًا ولا موضع اختيار إنما هو الإيمان أو لا إيمان.

ويحذر المؤلف من فئتين هما عصابة من المضلين المخادعين أعداء البشرية، يضعون لها المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في كفة ثم يقولون اختاري

أحدهما فهما لا يجتمعان وهذا تضليل وقلب للحقائق، فالمنهج الإلهي ليس عدوًا للإبداع، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجهه للوجهة الصحيحة.

والفئة الأخرى لا ينقصها حسن النية، لكن ينقصها الوعي الشامل والإدراك العميق، هؤلاء يبهرهم بريق الاكتشافات في عالم المادة، فيفصل هذا الانبهار والروعة في شعورهم بين القوى الطبيعية والقوى الإيمانية وعملها وأثرها في الكون وفى واقع الحياة.

وهذا وهم، إنهم فصلوا بين نوعين من السنن الإلهية حيث لا يجب أن يفصلوا بينهما فهذه القيم الإيمانية هي بعض سنن الله في الكون مثل القوانين الطبيعية سواء بسواء والإنسان كذلك قوة من قوى الوجود، وعمله وإرادته، وإيمانه وصلاحه، وعبادته ونشاطه... هي كذلك قوى ذات أثار إيجابية في هذا الوجود، وهى مرتبطة بسنة الله الشاملة للوجود. وكلها تعمل متناسقة وتعطى ثمارها كاملة حين تتجمع وتتناسق بينما تفسد آثارها وتضطرب، وتفسد معها الحياة، وتنتشر الشقوة والتعاسة حين تفترق وتتصادم:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فالارتباط بين الكون وأسراره من ناحية وبين الإيمان وضوابطه قائم ووثيق وممتد لا يفرق بينهما إلا عدو للبشرية يطاردها دون هدى، وينبغي للبشرية أن تطارده وتقصيه من طريقها إلى ربها الكريم...

ويختم المؤلف ذاكرًا: هذه بعض الخواطر والانطباعات من فترة الحياة في ظلال القرآن. لعل الله ينفع بها ويهدى. ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩].

القرآن المكي:

هكذا فرغ المؤلف من مقدمته، وبدأ في تدوين خواطره، ورغم أن المؤلف قد اتبع الترتيب التوقيفي للمصحف العثماني، إلا أنه أعطى مفاهيم خاصة للسور التي نزلت في مكة، ومفاهيم أخرى للسور التي نزلت في المدينة...ولذلك سأقتطف أولًا المعاني والمفاهيم التي جالت بخاطره مع السور المكية الآتية:

الفاتحة، الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، سبأ، فاطر، يس، الصافات، ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، الذاريات، الطور، النجم، القمر، الرحمن، الواقعة، الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس.

مدخل القسم المكي:

وضع الكاتب إطارًا عامًا لخواطره حول القسم المكي من القرآن فقال:

ظل القرآن يتنزل في مكة ثلاثة عشر عامًا يدور حول قضية واحدة هي القضية الكبرى والأساسية في هذا الدين قضية العقيدة. ممثلة في قاعدتها الرئيسية الألوهية والعبودية والعلاقة بينهما.. فهي قضية الإنسان.. فقصة العقيدة تفسر:

من هو الإنسان؟ ومن أين جاء؟ وكيف جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في النهاية من الذي جاء به من العدم للوجود؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي يسعى

الإنسان لمعرفة إجابة لها فيجيبه عنها القرآن المنزل في مكة.

تقديم للقرآن المكي:

وابتدأ التنزيل تقرير هذه العلاقة وطول فترة الـ ثلاثة عشر عام في بيانها وتثبيتها وقطع الشبه حولها وعدم تجاوز التنزيل هذه العقيدة، ولا النظر في فروعها كان غاية مستهدفة وذلك لنزع سلطان الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام..... ورد السلطان كله إلي الله السلطان علي الضمائر والشعائر وواقع الحياة والسلطان على المال والقضاء فالعقيدة الجديدة -عقيدة التوجيه هي القادرة علي إكراه أو إزالة السلطان المغتصب لحق الألوهية في أن تعبد، هذا هو سر المواجهة الصعبة التي كانت عقبة العقبات أمام الدعوة، فإن منافع الجاهلية تتزلزل، وعادات الكهان تتخلخل، وكما يتصور الكاتب فالمناخ العلمي عامة والعربي خاصة بلغ الحضيض في جميع سلوكه فالإنسان عماد الحياة والمؤتمن علي إدارتها قد أصبح عبدًا للسادة وليس لله، فتغيرت قواعد عمله فإذا الاقتصاد يهبط إلي درجة تفشي الربا، وبيع كل شيء، وإذا الخنا[1] والدعارة والكهانة والقتل وسفك الدماء وانتشار الخمور والميسر كان ذلك هو طابع المناخ العالمي.... فلا دعوة إصلاحية تنفع ولا توجيهًا اجتماعيًا يفلح ولا ثورة سياسية تنجز المقصود لابد من فك الأغلال والقيود لابد من إزاحة العقبات لابد من التعامل من مستوي البذر والإنبات أولًا، وليس مجرد التجديد والتعديل لابد من أساس ثابت صالح يعيد الإنسان إلي فطرته الأولى.

ويعقب المؤلف قائلًا: هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته، يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده، ويجعل بناء العقيدة وتمكينها وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها ضرورة من ضروريات النشأة الصحيحة، وضمانًا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء والضارب من

(١) الفحش في الكلام.

جذورها في الأعماق، استقر وثبت معها الساق والفروع وجانب آخر من طبيعة هذا الدين هو جانب المنهج، فهو منهج عملي حركي جاد جاء ليغير واقع الحياة بإقرار ما فيه من حق وإزاحة كل ما فيه من باطل فهو واقعي ولذلك تأخرت التنظيمات – إلى ما بعد الهجرة..... لأنه لا مكان لتنظيم إلا في واقع جذوره العقدية راسخة وثابتة.

وينطلق المؤلف من هذه المقدمات إلي نتائج – حسب تصوره– لنظم وتشريعات وفقه الدعوة فلا بد من طليعة مؤمنة تعيش الدعوة عيشة كاملة ثم تصبح هي طليعة فتظفر بتملك السلطة ظفر طليعة فتعيد الأساس العقدي تأسيسًا علي ما حدث فالقرآن المكي ثم المدني فقد تأسست العقيدة – كما تصور– أولًا ثم خرجت الطليعة إلي المدينة فحازت السلطة ثم بدا بعد ذلك التشريع والتفريع.

وكما أن لله لم ينزل التشريعات في الفترة المكية، ولم ينزلها إلا بعد وجود سلطة ومجتمع مؤمن فالقياس – عند المؤلف – أنه لا يمكن ولا يصح إعداد تشريعات وعرضها أو إعدادها إلا بعد تصحيح واقع المجتمع.

فما دامت الفترة المكية قد وصمها القرآن بأنها جاهلية فإن هذا الوصف يلحق كل كيان في أي زمان ومكان لا يرتكز علي أساس هذه العقيدة... فخاض المؤلف – غفر الله لنا وله– مادام لم يلتزم تعاليم هذا الدين ومعالمه إلى القول بجاهلية ليس كل المخالفين في المعتقد بل ولمن ينتسب لهذا الدين مادام لم يلتزم تعاليم هذا الدين وقواعده فالجميع كل الجميع كل مواطني العالم يعيشون جاهلية.

وهنا من واجب الأمانة العلمية أن ننقل عمن نقل عن المؤلف نفسه ما ينفي هذا القصد وذلك باستناد الناقل إلى شهادة المؤلف على نفسه في التحقيقات أنه لم يقصد ذلك.. وأن المسألة تتعلق بما فهم أعضاء التنظيم ولم يقله هو.. كما دوَّن أخو المؤلف الأستاذ محمد قطب دعمًا آخر لهذه المسألة.

وعلى أية حال– فإن الكلام المكتوب والمطبوع والمتداول قد ثبت تطرقه

لاحتمالات أقربها ضد القصد المقصود لهذا تفيد هذه الصياغة عيبًا وسقطة في هذا السفر العظيم.

هذا مدلول الدعوة - كما يقول المؤلف - إن الإسلام ليس مجرد قبول شرع الله بل لابد من رفض كل شرع غيره.... فمن رغب عن هذا الأصل لا حاجة في ترغيبه بجمال التشريعات وجدواها - هذه الحرب بين التوحيد والشرك في مكة هي الأصل الذي لابد وأن تبدأ به كل دعوة كما يذكر المؤلف.

ويبدأ المؤلف خواطره عن سورة الفاتحة فيقول:

في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، ما يشير إلي طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها. تبدأ السورة: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحي الله لنبيه ﷺ: «اقرأ باسم ربك.....» الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أن الله «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» ووصفه بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وخصه وحده باجتماع هاتين الصفتين - كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن.

استغراق معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها في صفتي «الرحمن الرحيم» يمثل الكلية الثانية في هذا التصور ويقرر حقيقة العلاقة بين الله والعباد.

«رب العالمين» فهو يمثل قاعدة التصور الإسلامي، فالربوبية المطلقة الشاملة هي إحدى كليات العقيدة الإسلامية... والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة علي السيد المتصرف للإصلاح والتربية.....

التصرف للإصلاح والتربية يشمل العالمين - أي جميع الخلائق - والله - سبحانه - لم يخلق الكون ثم يتركه هملًا. إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه

ويربيه. وكل العوالم والخلائق تحفظ وتتعهد برعاية الله رب العالمين والصلة بين الخالق والخلائق دائمة ممتدة قائمة في كل وقت وفي كل حالة.

فإذا ذهبنا إلى خواطره عن سورة الأنعام نجده يقول:

هذه السورة - وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال -نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه، في موضوعها الأساسي، وفي منهج التناول، وفي طريقة العرض سواء.. ذلك مع احتفاظها «بشخصيتها» الخاصة ؛ وفقا لظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة..فلكل سورة شخصيتها، وملامحها، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها ؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها ؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها... حتى وهي تتناول موضوعًا واحدًا أو موضوعات متقاربة. فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة ؛ ولكن هذه الملامح والسمات الخاصة بها !

وهذه السورة - مع ذلك - تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة.. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل «الروعة الباهرة» .. الروعة التي تبدها النفس، وتشده الحس، وتبهر النفس أيضا ؛ وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورًا !

نعم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها..وما أظن بشرًا اذا قلب لا يجد منها لونًا من هذا الذي أجد..إن الروعة فيها تبلغ فعلًا حد البهر. حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورًا مبدوهًا !

إنها - في جملتها - تعرض «حقيقة الألوهية» .. تعرضها في مجال الكون والحياة، كما تعرضها في مجال النفس والضمير، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون.. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين.. وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون، وتواجه الأحداث، وتواجه النعماء والضراء، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة.. وأخيرًا تعرضها في مشاهد القيامة، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق..

كما يستخلص المؤلف من سورة الأعراف ما يلي:

سورة الأعراف- كسورة الأنعام- موضوعها الأساسي هو موضوع القرآن المكي.. العقيدة.. ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان في معالجة هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة!.

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة...ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها، وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها، وتواجه الجاهلية العربية في حينها- وكل جاهلية أخري..نجد سورة الأعراف- وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك- تأخذ طريقًا آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر..إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري...في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلي النقطة التي انطلقت منها.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان» من لدن آدم عليه السلام إلي محمد- عليه الصلاة والسلام-تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلًا بعد جيل، وقبيلًا بعد قبيل.. ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدي؟ كيف

خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة..

وها هو المؤلف يرحمه الله يكتب عن سورة يونس ما يلي:

كذلك نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضًا.. والعجيب أن هناك شبهًا كبيرًا بين هاتين السورتين وتلكما في الموضوع، وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها، وتواجه الجاهلية بها، وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعورًا، وعبادة وعملًا. بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ. وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود.. في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضًا.. إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس، بارتفاع وضخامة في الإيقاع، وسرعة وقوة في النبض، ولألاء شديد في التصوير والحركة.. بينما تمضي سورة يونس، في إيقاع رخي، ونبض هادئ، وسلامة وديعة !.. فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعًا وعرضًا وإيقاعًا ونبضًا.. ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، بعد كل هذا التشابه والاختلاف !

والموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة.. والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة، التي تحدد شخصيتها وملامحها..

وفي سورة هود يشير المؤلف إلى أبرز موضوعاتها:

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس. ونزلت يونس بعد الإسراء. وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها؛ وهي من أحرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ

الدعوة بمكة. فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه في حياة أبي طالب - وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته، واستهزاء المشركين به، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله ﷺ من خديجة - رضي الله عنها - في الوقت الذي تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته؛ وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها.. وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية..

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبي طالب - وكان له عضدًا وحرزًا في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه - وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي. ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك» قال: ويقول بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب».

ففي هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها، وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحمل طابع هذه الفترة؛ وتحدث عن مدى تحدي قريش وتعديها. (يراجع ما جاء عن هذه الفترة في التعريف بسورة يونس.

وعند سورة يوسف يعرض المؤلف ما جال بخاطره معها:

هذه السورة مكية، نزلت بعد سورة هود، في تلك الفترة الحرجة التي تحدثنا عنها في سورة يونس وفي تقديم سورة هود.. بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة سندي رسول الله ﷺ وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التي جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجًا ومخرجًا بالهجرة إلى المدينة.. وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التي نزلت في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوى وفي حياة الرسول ﷺ والعصبة المسلمة معه في مكة..وهي سورة ذات طابع خاص إذ حوت قصة نبي الله يوسف ﷺ منذ طفولته إلى الوزارة ثم عرش مصر...

وعند سورة إبراهيم يذكر المؤلف:

هذه السورة موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب: العقيدة في أصولها الكبيرة: الوحي والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء.

ولكن السياق في السورة يسلك نهجًا خاصًا بها في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة. نهجًا مفردًا يميزها - كالشأن في كل سورة قرآنية - عن السور غيرها. يميزها بجوها وطريقة أدائها، والأضواء والظلال الخاصة التي تعرض فيها حقائقها الكبرى. ولون هذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعيًا عن مثيلاتها في السور الأخرى؛ ولكنها تعرض من زاوية خاصة، في أضواء خاصة فتوحي إيحاءات خاصة كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها، فتزيد أطرافًا وتنقص أطرافًا، فيحسها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد «اللقطات الفنية». ونحن نستعمل هذا التعبير «اللقطات الفنية» لأنه يلاحظ في صورته المعجزة في طريقة الأداء القرآنية.

ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب.. إبراهيم.. أبو الأنبياء.. المبارك، الشاكر الأواه المنيب. وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جو السورة، وفي الحقائق التي تبرزها، وفي طريقة الأداء، وفي التعبير والإيقاع.

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسة في العقيدة. ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها. وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظل إبراهيم في جو السورة: حقيقة وحدة الرسالة والرسل، ووحدة دعوتهم، ووقفتهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان. وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر؛ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران.

وكذلك في سورة الحجر يدون ما علق بذهنه من معانيها:

هذه السورة نزلت بعد سورة يوسف، في الفترة الحرجة، ما بين «عام الحزن» وعام الهجرة.. وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة، وحاجاتها ومقتضياتها الحركية.. إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية؛ وتوجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة معه، توجيهًا واقعيًا مباشرًا وتجاهد المكذبين جهادًا كبيرًا..

ولما كانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت، بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبي ﷺ والعصبة المؤمنة معه؛ حيث اجترأت قريش على رسول الله ﷺ بما لم تكن تجترئ عليه في حياة أبي طالب. واشتد استهزاؤها بدعوته؛ كما اشتد إيذاؤها لصحابته.. فقد جاء القرآن الكريم في هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم؛ ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم؛ ويكشف للرسول ﷺ عن علة تكذيبهم وعنادهم؛ وهي لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه، لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تجدي معه الآيات البينات. ومن ثم يسلي الرسول ﷺ ويواسيه؛ ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذي معه؛ والصدع به بقوة في مواجهة الشرك وأهله.

ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن.. سمة الواقعية الحركية.. لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه.

إنه لابد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني.. لابد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته؛ ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي؛ ويواجه حالة واقعية؛ كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده. وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها؛ كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية.

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلًا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة؛ ومن ثم يواجهون أحوالًا وملابسات وظروفًا وأحداثًا كالتي كان يواجهها صاحب الدعوى الأولى - صلى الله وسلامه عليه - والعصبة المسلمة معه.. من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة؛ التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة لله وحده في كل شأن من شئون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبتلى - في سبيل الله - به..

إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية؛ ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى.. هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية.. وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن؛ ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه. على النحو الذي أسلفنا. وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق، في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة !

وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة. حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الإسلام؛ ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد.

نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله، وذلك لاختلاف بعض الظروف والملابسات الخارجية.. نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة.. ولكن مع اختلاف في الملابسات الظروف والحاجة والمقتضيات الواقعية للحركة.. وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي «اجتهادًا» جديدًا في «فقه الحركة» يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلًا أو كثيرًا..

هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة.. أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة، وشرائع المجتمع المنظم المستقر، فهذا ليس أوانه.. إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم، قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي!.. هذا النوع من الفقه يأتي في حينه؛ وتُفَصَّل أحكامه على قدر المجتمع المسلم حين يوجد؛ ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك!

إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستنبت بذوره في الهواء ! **وعندما وصل المؤلف لسورة النحل أخذ يبين بعض ما فيها من مفاهيم:**

هذه السورة هادئة الإيقاع، عادية الجرس؛ ولكنها مليئة حافلة. موضوعاتها الرئيسية كثيرة منوعة؛ والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل؛ والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة، والظلال التي تلونها عميقة الخطوط.

وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية. والوحي. والبعث. ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية. تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد ﷺ وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال. وتلم بوظيفة الرسل، وسنة الله في المكذبين لهم. وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع. وتلم بالهجرة في سبيل الله، وفتنة المسلمين في دينهم، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله.. ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة: العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها.

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل.. هو السماوات والأرض. والماء الهاطل والشجر النامي. والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار. وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها، والأخرى بأقدارها ومشاهدها. وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق.

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير. حملة هادئة الإيقاع، ولكنها متعددة الأوتار. ليست في جلجلة الأنعام والرعد، ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس. إنها تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، واللمس ليستشعر، والوجدان ليتأثر، والعقل ليتدبر. وتحشد الكون كله: سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكنانه نبته وثماره، وحيوانه وطيوره. كما تحشد

دنياه وآخرته، وأسراره وغيوبه.. كلها أدوات تقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب، مختلف الإيقاعات التي لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت، والحس المطموس.

ثم سورة الإسراء وما خلدته من حوادث تاريخية مميزة فترى المؤلف يكتب:

هذه السورة تبدأ بتسبيح الله وتنتهي بحمده؛ وتضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة؛ إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء. وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان.

ولكن العنصر البارز في كيان السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول ﷺ وموقف القوم منه في مكة. وهو القرآن الذي جاء به، وطبيعة هذا القرآن، وما يهدي إليه، واستقبال القوم له. واستطرد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل، وإلى امتياز الرسالة المحمدية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها. وإلى تقرير التبعة الفردية في الهدى والضلال الاعتقادي، والتبعة الجماعية في السلوك العملي في محيط المجتمع.. كل ذلك بعد أن يعذر الله - سبحانه - إلى الناس، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

ويتكرر في سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه. ففي مطلعها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] وفي أمر بني إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.. [الإسراء:٣] وعند ذكر دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾.. [الإسراء:٤٣] وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء:١٠٨].. وتختم السورة بالآية ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١].

وتنتهي السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه. القرآن الذي نزل مفرقًا ليقرأه الرسول على القوم زمنًا طويلًا بمناسباته ومقتضياته، وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية واقعية عملية. والذي يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود. ويختم السورة بحمد الله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل. كما بدأها بتسبيحه وتنزيهه.

كذلك يلاحظ أن الرسول ﷺ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق - وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل - ذلك أن هذه الدعوى لا تعتمد على الخوارق، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستند من الفطرة القويمة، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها. فلم يكن جهر الرسول ﷺ بالواقعة ناشئًا عن اعتماده عليها في شيء من رسالته. إنما كان جهرًا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة.

وعند سورة الكهف يدون دروسها وعبرها:

القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة. ففي أولها قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس. وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين. ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية؛

ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها. وإلى حوار القصص بعض مشاهد القيامة. وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حولها سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر. وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة.

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف:١-٥].

وفي الختام: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

ثم تختم السورة بمثل ما بدأت: تبشير للمؤمنين وإنذار للكافرين، وإثبات للوحي وتنزيه لله عن الشريك.

سورة مريم: تلك السورة الوحيدة التي سميت اسمًا مميزًا فهو اسم لعلم من غير الأنبياء كما أنه اسم لأنثى، ولم يسم القرآن في جميع سوره سورة باسم بشر من غير الأنبياء فضلًا عن أن تكون أنثى إلا سورة مريم. فإذا انتقل المؤلف إلى سورة مريم، بين أهم موضوعاتها:

يدور سياق هذه السورة على محور التوحيد؛ ونفي الولد والشريك؛ ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد.. هذا هو الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة، كالشأن في السور المكية غالبًا.

والقصص هو مادة هذه السورة. فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى. فقصة مريم ومولد عيسى. فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه.. ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسى وهارون، وإسماعيل، وإدريس. وآدم ونوح. ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة. ويستهدف إثبات الوحدانية والبعث، ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين.

ومن ثم بعض مشاهد القيامة. وبعض الجدل مع المنكرين للبعث.

واستنكار للشرك ودعوى الولد؛ وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا وفي الآخرة.. وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل.

وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها، ويتمشى في موضوعاتها.

فإذا وصل المؤلف إلى سورة طه، دون خواطره التالية:

تبدأ هذه السورة وتختم بخطاب للرسول ﷺ ببيان وظيفته وتحديد تكاليفه.. إنها ليست شقوة كتبت عليه، وليست عناء يعذب به. إنما هي الدعوة والتذكرة، وهي التبشير والإنذار. وأمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره. المهيمن على ظاهر الكون وباطنه، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها. الذي تعنو له الجباه، ويرجع إليه الناس: طائعهم وعاصيهم.. فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر؛ ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون.

وبين المطلع والختام تعرض قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ

بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، مفصلة مطولة؛ وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى - وموقف الجدل بين موسى وفرعون. وموقف المباراة بين موسى والسحرة.. وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه، وقال له ولأخيه: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته، وهدايته له. وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار.

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله.. ظل علوي جليل، تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه.. إنه الظل الذي يخلعه تجلي الرحمن على الوادي المقدس على عبده موسى، في تلك المناجاة الطويلة؛ والليل ساكن وموسى وحيد، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل.. وهو الظل الذي يخلعه تجلي القيوم في الحشر العظيم: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ .. [طه:١٠٨] ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه:١١١].

والإيقاع الموسيقي للسورة كلها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيًا شجيًا نديًا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها تقريبًا.

أما سورة الأنبياء فقد كتب المؤلف عن آياتها ما يلي:

هذه السورة تعالج الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السور المكية.. موضوع العقيدة.. تعالجه في ميادينه الكبيرة: ميادين التوحيد، والرسالة والبعث. وسياق السورة يعالج ذلك الموضوع بعرض النواميس الكونية الكبرى وربط العقيدة بها. فالعقيدة جزء من بناء هذا الكون، يسير على نواميسه الكبرى ؛وهي تقوم على الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، وعلى الجد الذي تدبر بها السموات

والأرض، وليست لعبًا ولا باطلًا، كما أن هذا الكون لم يخلق لعبًا، ولم يشب خلقه باطل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء:١٦] .

ومن ثم يجول بالناس.. بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم.. بين مجالي الكون الكبرى: السماء والأرض. الرواسي والفجاج. الليل والنهار. الشمس والقمر...موجها أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر، والمالك الذي لا شريك له في الملك، كما أنه لا شريك له في الخلق..﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾..[الأنبياء:٢٢] ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه الأرض، وإلى وحدة مصدر الحياة: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء:٣٠] وإلى وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ .. وإلى وحدة المصير الذي إليه ينتهون: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.. [الأنبياء:٣٥] ويجيء ختام السورة بمثل ما بدأت: إيقاعًا قويًا، وإنذارًا صريحًا، وتخلية بينهم وبين مصيرهم المحتوم.

ويبدأ المؤلف بيان سورة المؤمنون فيقول:

هذه سورة «المؤمنون».. اسمها يدل عليها. ويحدد موضوعها.. فهي تبدأ بصفة المؤمنين، ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق. ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله - صلوات الله عليهم - من لدن نوح عليه السلام إلى محمد خاتم الرسل والنبيين ؛ وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها، ووقوفهم في وجهها، حتى يستنصر الرسل بربهم، فيُهلك المكذبين، ويُنْجي المؤمنين.. ثم يستطرد إلى اختلاف الناس - بعد الرسل - في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد.. ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول ﷺ ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر.. وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون

فيه عاقبة التكذيب، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب، يختم بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران..

فهي سورة «المؤمنون» أو هي سورة الإيمان، بكل قضاياه ودلائله وصفاته. وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل.

جو السورة كلها هو جو البيان والتقرير، وجو الجدل الهادئ، والمنطق الوجداني، واللمسات الموحية للفكر والضمير. والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يلقيه موضوعها.. الإيمان.. ففي مطلعها مشهد الخشوع في الصلاة: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٢] وفي صفات المؤمنين في وسطها: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٠].. وفي اللمسات الوجدانية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٨].

وكلها مظللة بذلك الظل الإيماني اللطيف.

وعند سورة الفرقان يكتب المؤلف:

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية. وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدي وصدقهم عنه.

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله؛ وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحًا رفيقًا؛ ويهدهد قلبه، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللطف والمودة.

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله. وهي تجادل في عنف، وتشرد في جموع، وتتطاول في قحة، وتتعنت في عناد، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين.

أما سورة الشعراء فقد كتب المؤلف عن آياتها:

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعًا.. العقيدة.. ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣].. والخوف من الآخرة: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٧- ٨٩].. والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤].. ثم التخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين؛ وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الشعراء:٦].. ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء:٢٧٧].

ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣] وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين؛ وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين؛ كما ثبت من قبلهم من المؤمنين.

وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها. والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب. والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد.. ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض.

وهكذا وصل المؤلف إلى سورة النمل فكتب:

هذه السورة نزلت بعد الشعراء؛ وهي تمضي على نسقها في الأداء: مقدمة

وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه؛ وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع، ويؤكده، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم في شتى الأمم. للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات.

وموضوع السورة الرئيسي - كسائر السور المكية - هو العقيدة: الإيمان بالله، وعبادته وحده، والإيمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب. والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله، لا يعلمه سواه. والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم؛ وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر. والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله.

ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني؛ وتصوير عاقبة المكذبين بها، وعاقبة المؤمنين.

وعند شروع المؤلف في تدوين خواطره عن سورة القصص، قال:

هذه السورة نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان. نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله؛ وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان. فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجردًا من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى؛ ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس ينفعه شيء أصلًا.

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام.. الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر؛ وفي مواجهتها موسى طفلًا رضيعًا لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية، وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعًا،

واستضعف بني إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم، ولكن قوة فرعون وجبروته، وحذره ويقظته، لا تغني عنه شيئًا؛ بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير، المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمي عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحديًا سافرًا، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

والقصة الثانية تعرض قيمة المال، ومعها قيمة العلم. المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليه قارون في زينته، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء. والعلم الذي يعتز به قارون، ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال. ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تستخفهم زينته؛ بل يتطلعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنه خير وأبقى. ثم تتداخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض، لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه؛ وتتدخل تدخلًا مباشرًا سافرًا كما تدخلت في أمر فرعون، فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين.

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان؛ ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال. وكانت النهاية واحدة، هذا خسف به وبداره، وذلك أخذه اليم هو وجنوده، ولم تكن هناك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة. إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدًا للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد.

وفي بداية سورة العنكبوت سجل المؤلف هذه الخواطر:

سورة العنكبوت مكية. وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية

الأولى مدنية. وذلك لذكر «الجهاد» فيها وذكر «المنافقين».. ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية. وقد وردت في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص كما سيجيء. وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال. وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية. لذلك نرجح مكية الآيات كلها. أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير. لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة. أي جهاد النفس لتصبر ولا تفتن. وهذا واضح في السياق. وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس.

والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام.

إذ تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة؛ وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس. فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف.

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها؛ فإن سياقها يمضي بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان، استعراضًا سريعًا يصور ألوانًا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان. على امتداد الأجيال.

وجاءت سورة الروم فكتب:

نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معينة. ذلك حين غلبت فارس على الروم فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب. وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركين.. ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء

عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد، وفألًا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان.

ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون، الذين يودون انتصار ملة الإيمان من كل دين.

ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد، ولا في حدود ذلك الحادث. إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت، وليصلهم بالكون كله، وليربط بين سنة الله في نصر العقيدة السماوية والحق الكبير الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما. وليصل بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها. ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا. وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود. ثم يطوف بهم في مشاهد الكون، وفي أغوار النفس، وفي أحوال البشر، وفي عجائب الفطرة.. فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطلعون على آفاق من المعرفة لرفعه حياتهم وتطلقها، وتوسع آمادها وأهدافها، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة. عزلة المكان والزمان والحادث. إلى فسحة الكون كله: ماضيه وحاضره ومستقبله، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه.

ويختم السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر على دعوته، وما يلقاه من الناس فيها؛ والاطمئنان إلى أن وعد الله حق لابد آت؛ فلا يقلقه ولا يستخفه الذين لا يوقنون.

وعند سورة لقمان ركز المؤلف على:

وهذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري، وهي تعالج قضية العقيدة في نفوس المشركين الذين انحرفوا عن تلك

الحقيقة. إنها القضية التي تعالجها السور المكية في أساليب شتى، ومن زوايا منوعة، تتناول القلب البشري من جميع أقطاره؛ وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التي تخاطب الفطرة وتوقظها..

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحد، فإنها تعرض في السورة أربع مرات في أربع جولات، تطوف كل منها بالقلب البشري في ذلك المجال الفسيح، مستصحبة في كل مرة مؤثرات جديدة، ومتبعة أسلوبًا كذلك جديدًا في العرض والتناول. وتتبع هذه الجولات وهي تبدأ وتنتهي بطريقة عجيبة فيه متاع للقلب والعقل. إلى جانب ما فيه من دواعي التأثر والاستجابة.

وافتتح المؤلف مقاله عن سورة السجدة فقال:

هذه السورة نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن ليوقظها في الفطرة، ويركزها في القلوب: عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد، خالق الكون والناس، ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله. والتصديق برسالة محمد ﷺ الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله. والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء.

هذه هي القضية التي تعالجها السورة؛ وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية. كل منها تعالجها بأسلوب خاص، ومؤثرات خاصة.

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة فهي تعرضها في آياتها الأولى؛ ثم تمضي بقيتها تقدم مؤثرات موقظة للقلب، منيرة للروح. مثيرة للتأمل والتدبر؛ كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية معروضة في صفحة الكون ومشاهده؛ وفي نشأة الإنسان وأطواره؛ وفي مشاهد من اليوم الآخر حافلة بالحياة والحركة؛ وفي مصارع الغابرين وآثارهم الناطقة بالعبرة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها !

كذلك ترسم السورة صورًا للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلعها إلى ربها. وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها؛ وتعرض صورًا للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان، يشهده كل قارئ لهذا القرآن.

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة، وإلى الخوف والخشية مرة، وإلى التطلع والرجاء مرة. وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد، وتارة بالإطماع، وتارة بالإقناع.. ثم تدعه في النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين. تدعه لنفسه يختار طريقه، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور.

وكذلك خص سورة سبأ بما يلي:

موضوعات هذه السورة هي موضوعات العقيدة الرئيسية: توحيد الله، والإيمان بالوحي، والاعتقاد بالبعث. وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية. وبيان أن الإيمان والعمل الصالح - لا الأموال ولا الأولاد - هما قوام الحكم والجزاء عند الله. أنه ما من قوة تعصم من بطش الله؛ وما من شفاعة عنده إلا بإذن.

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء؛ وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقته ولطفه. وتتكرر الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين المترابطتين بطرق منوعة، وأساليب شتى؛ وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية.

وعند سورة فاطر دَوَّن:

هذه السورة المكية نسق خاص في موضوعها وفي سياقها. أقرب ما تكون إلى نسق الرعد. فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها. إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزًا، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود،

وروعة هذا الكون؛ وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه، المتناثرة في صفحاته؛ وليتذكر آلاء الله، ويشعر برحمته ورعايته؛ وليتصور مصارع الغابرين في الأرض ومشاهدهم يوم القيامة؛ وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله، وآثار يده في أطواء الكون، وفي أغوار النفس، وفي حياة البشر، وفي أحداث التاريخ. وهو يرى ويلمس في تلك البدائع وهذه الآثار وحدة الحق ووحدة الناموس؛ ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القديرة... ذلك كله في أسلوب وفي إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك، ويتأثر تأثر الأحياء.

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات متتالية الإيقاعات. يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات. فهي كلها موضوع واحد. كلها إيقاعات على أوتار القلب البشري، تستمد من ينابيع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث. فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع، إلى الإيمان والخشوع والإذعان.

والسمة البارزة الملحوظة في هذه الإيقاعات هي تجميع الخيوط كلها في يد القدرة المبدعة. وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها، وتقبضها وتبسطها، وتشدها وترخيها. بلا معقب ولا شريك ولا ظهير. ومنذ ابتداء السورة نلمح هذه السمة البارزة. وتطرد إلى ختامها.

وعند بداية ربع المصحف الأخير الذي يبدأ بسورة يس كتب المؤلف قائلًا:

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة. وإيقاعات سريعة. ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثًا وثمانين، بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون.

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص. فتتلاحق إيقاعاتها، وتدق على الحس دقات متوالية، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها

من الصور والظلال التي تخلعها المَشَاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها. وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار.

والموضوعات الرئيسة للسورة هي موضوعات السور المكية. وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [يس:١-٥]. وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة؛ وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية. فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ .. ﴾ [يس:٧٤، ٧٥] .

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة تجيء في أولها: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ [يس:١٢].. وتأتي في قصة أصحاب القرية، فيما وقع للرجل المؤمن. وقد كان جزاؤها العاجل في السياق: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ [يس:٢٦، ٢٧] .

.. ثم ترد في وسط السورة: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ

إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس:٤٨-٥٠].. ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة. وفي النهاية السورة ترد هذه القصة في صورة حوار: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٨، ٧٩].

وتابع المؤلف كلماته في مدخل سورة الصافات:

هذه السورة المكية - كسابقتها - قصيرة الفواصل، سريعة الإيقاع. كثيرة المشاهد والمواقف، متنوعة الصور والظلال، عميقة المؤثرات، وبعضها عنيف الوقع، عنيف التأثير.

وهي تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله. ولكنها - بصفة خاصة - تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى. وتقف أمام هذه الصورة طويلًا؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى.. تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها. وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله - سبحانه - وبين الجن. وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله - تعالى - والجنة ولدت الملائكة. ثم تزعم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة، تكشف عن تهافتها وسخفها. ونظرًا لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة. فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ [الصافات:١-٣].

ويتلوها حديث عن الشياطين المردة، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا

يقربوا من الملأ الأعلى. ولا يتسمعوا لما يدور فيه؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التي يعذب بها الظالمون في جهنم بأنها كرءوس الشياطين في معرض التقبيح والتفظيع ! وفي نهاية الصورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾! [الصافات:١٤٩-١٥٩].

ويأتي ختام السورة بتنزيه الله سبحانه والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢] .. وهي القضايا التي تتناولها السورة في الصميم.

وعند سورة ص يدوِّن المؤلف ما يلي:

هذه السورة مكية، تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد، وقضية الوحي إلى محمد ﷺ وقضية الحساب في الآخرة. وتعرض هذه القضايا الثلاث في مطلعها الذي يؤلف الشوط الأول منها. وهو الآيات الكريمة التي فوق هذا الكلام. وهي تمثل الدهش والاستغراب والمفاجأة التي تَلقَّى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي ﷺ لهم إلى توحيد الله؛ وإخبارهم بقصة الوحي واختياره رسولًا من عند الله.

وجاءت سورة الزمر فكتب يقول:

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد. وهي تطوف

بالقلب البشري في جولات متعاقبة؛ وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة؛ وتهزه هزًا عميقًا متواصلًا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها، وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة. ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها؛ يعرض في صور شتى.

أما سورة غافر فها هو المؤلف يكتب:

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل. قضية الإيمان والكفر. قضية الدعوة والتكذيب وأخيرًا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين.. وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، واستجابة الله لدعائهم، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم.

وجو السورة كله – من ثم – كأنه جو معركة. وهي المعركة بين الحق والباطل، وبين الإيمان والطغيان، وبين المتكبرين والمتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل. تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين !

ذلك الجوي يتمثل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة – وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر – وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة.

وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين. وقد ترقى أحيانًا فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق، وهي تعرض حملة

العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين، أو هي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية.

وبلغ المؤلف سورة فصلت فكتب:

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة.. الألوهية الواحدة. والحياة الآخرة، والوحي بالرسالة. يضاف إليها طريقة الدعوى إلى الله وخلق الداعية.

وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق، واستدلال عليها. وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق، وتحذير من التكذيب بها، وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة. وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده. بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة... كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون.

ومن سورة الشورى استخلص المؤلف:

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة. حتى ليصح أن يقال: إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها؛ وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعًا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها.

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوحدانية، وتعرضها من جوانب متعددة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها؛ ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها. وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها. كما تلم بقضية الرزق: بسطه وقبضه؛ وصفة الإنسان في السراء والضراء.

ولكن حقيقة الوحي والرسالة، وما يتصل بها. تظل - مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السورة. والتي تطبعها وتظللها. وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها.

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة. وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة. فهي تعرض من جوانب متعددة. يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق. أو وحدانية الرازق. أو وحدانية المتصرف في القلوب. أو وحدانية المتصرف في المصير.. ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحي - سبحانه - ووحدة الوحي. ووحدة العقيدة. ووحدة المنهج والطريق. وأخيرًا وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة.

وفي تأمله لسورة الزخرف ذكر المؤلف:

تعرض هذه السورة جانبًا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات؛ ومن جدال واعتراضات. وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس؛ وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمة في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك، ولا يزال جانب منها قائمًا في النفوس في كل زمان ومكان.

وفي مفتتح سورة الدخان سجَّل المؤلف:

يشبه إيقاع هذه السورة المكية، بفواصلها القصيرة، وقافيتها المتقاربة، وصورها العنيفة، وظلالها الموحية.. يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشري المشدودة.

ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة، ذات محور واحد، تشد إليه

خيوطها جميعًا. سواء في ذلك القصة، ومشهد القيامة، ومصارع الغابرين، والمشهد الكوني، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة. فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة، كما يبثها هذا القرآن في القلوب.

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله في ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم، رحمة من الله بالعباد وإنذارًا لهم وتحذيرًا. ثم تعريف للناس بربهم: رب السماوات والأرض وما بينهما، وإثبات لوحدانيته وهو المحيي المميت رب الأولين والآخرين.

وبلغ سورة الجاثية فكتب:

هذه السورة المكية تصور جانبًا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية، وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها، وإتباعها للهوى إتباعًا كاملًا في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان. كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى، المغلقة دون الهدى؛ وهو يواجهها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير والدلالة، ويذكرهم عذابه، ويصور لهم ثوابه، ويقرر لهم سننه، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود.

ومن خلال آيات السورة وتصويرها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة، نرى فريقًا من الناس مصرًا على الضلالة، مكابرًا في الحق، شديد العناد، سيء الأدب في حق الله وحق كلامه، ترسمه هذه الآيات، وتواجهه بما يستحقه من الترذيل والتحذير والتهديد بعذاب الله المهين الأليم العظيم.

وتوقف المؤلف أمام سورة الأحقاف فرصد:

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة.. قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته

المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه. والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدًا ﷺ رسول سبقته الرسل، أوحي إليه بالقرآن مصدقًا لما بين يديه من الكتاب. والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة.

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله. ومن ثم عالجها القرآن في كل سوره المكية علاجًا أساسيًا، وظل يتكئ عليها كذلك في سوره المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية. ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه، وبعثة محمد ﷺ والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء.. هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها، وترتبط به أوثق ارتباط؛ فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان.

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل؛ وتوقع فيها على كل وتر؛ وتعرضها في مجالات شتى، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية. كما أنها تجعلها قضية الوجود كله - لا قضية البشر وحدهم - فتذكر طرفًا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني إسرائيل منه. وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدًا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدًا. سواء بسواء.

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض، وفي مشاهد القيامة في الآخرة. كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة. وتجعل من السماوات والأرض كتابًا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

وانتقل المؤلف إلى سورة (ق) فسرد:

كان رسول الله ﷺ يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة؛ فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها، في الجماعات الحافلة.. وإن لها لشأنًا..

إنها سورة رهيبة، شديدة الواقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجرس فواصلها. تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها، وتتعقبها في سرها وجهرها، وفي باطنها وظاهرها. تتعقبها برقابة الله، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد، إلى الممات، إلى البعث، إلى الحشر، إلى الحساب. وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة. تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقًا كاملًا شاملًا. فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبدًا، ولا تغفل من أمره دقيقًا ولا جليلًا، ولا تفارقه كثيرًا ولا قليلًا. كل نَفَس معدود. وكل هاجسة معلومة. وكل لفظ مكتوب. وكل حركة محسوبة. والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح. ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة، في كل وقت وفي كل حال.

وكل هذه حقائق معلومة. ولكنها تُعرض في الأسلوب الذي يبينها وكأنها جديدة، تروع الحس روعة المفاجأة؛ وتهز النفس هزًا، وترجها رجًا، وتثير فيها رعشة الخوف، وروعة الإعجاب، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وعند الجزء السابع والعشرين وبداية من سورة الذاريات مرورًا بسور الطور، النجم، القمر، الرحمن والواقعة نستطيع أن نستخرج من خواطر المؤلف أبرز ما ذكره كما يلي:

سورة الذاريات:

هذه السورة ذات جو خاص. فهي تبدأ بذكر قوى أربعة.. من أمر الله. في لفظ مبهم الدلالة، يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر. يقسم الله - تعالى - على أمر: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ..﴾ [الذاريات:١-٥].

والذاريات. والحاملات. والجاريات. والمقسمات.. مدلولاتها ليست متعارفة، وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار، كما أنها بذاتها تلقي في الحس ذلك الظل. ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة.

سورة الطور:

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري. ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتندسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه. ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان.. حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام!

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة، والمعنى والمدلول، والصور والظلال، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء. ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطًا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام!

سورة النجم:

هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية، منغمة، يسري التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة. ويلحظ هذا التنغيم في السورة بصفة عامة؛ ويبدو القصد فيها واضحًا في بعض المواضع؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية، لتضمن سلامة التنغيم ودقة إيقاعه - إلى جانب المعنى المقصود الذي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني.

سورة القمر:

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رهيبة مفزعة عنيفة على قلوب

المكذبين بالنذر، بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة. وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزه ويقول له: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر:١٦].. ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى. فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع، ومشهد من هذه المشاهد في الختام. وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح. وعاد وثمود. وقوم لوط. وفرعون وملئه. وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى.

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضًا خاصًا، يحيلها جديدة كل الجدة. فهي تعرض عنيفة عاصفة، وحاسمة قاصمة؛ يفيض منها الهول، ويتناثر حولها الرعب، ويظللها الدمار والفزع والانبهار !

سورة الرحمن:

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ. إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة، في جميل صنعه، وإبداع خلقه؛ وفي فيض نعمائه؛ وفي تدبيره للوجود وما فيه؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجه الكريم.. وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين: الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء، في ساحة الوجود، على مشهد من كل موجود، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله، تحديًا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها، ويجعل الكون كله معرضًا لها، وساحة الآخرة كذلك.

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله، وفي إيقاع فواصلها.. تتجلى في إطلاق

الصوت إلى أعلى، وامتداد التصويت إلى بعيد؛ كما تتجلى في المطلع الذي يستثير الترقب والانتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار الرحمن.. كلمة واحدة. مبتدأ مفردًا.. الرحمن كلمة واحدة في معناها الرحمة، وفي رنتها الإعلان، والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمن.

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان. تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان.

ثم يذكر خلق الإنسان، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى... البيان.

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله.. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء المرفوعة. والميزان الموضوع. والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان. والجن والإنس. والمشرقين والمغربين. والبحرين بينهما برزخ لا يبغيان، وما يخرج منهما وما يجري فيهما.

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبرى. عرض مشهد فنائها جميعًا. مشهد الفناء المطلق للخلائق، في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي. الذي إليه تتوجه الخلائق جميعًا، ليتصرف في أمرها بما يشاء.

وفي ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجيء التهديد المروع والتحدي الكوني للجن والإنس: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.. [الرحمن:٣١-٣٦].

ومن ثم يعرض مشهد النهاية. مشهد القيامة. يعرض في صورة كونية. يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة، ومشهد العذاب للمجرمين، والثواب للمتقين في

تطويل وتفصيل.

ثم يجيء الختام المناسب لمعرض الآلاء: ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨].

سورة الواقعة:

الواقعة.. اسم للسورة وبيان لموضوعها معًا. فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة، ردًا على قولة الشاكين فيها، المشركين بالله، المكذبين بالقرآن: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.. [الصافات:١٦-١٧].

فإذا عبرنا الجزء الثامن والعشرين لأن جميع سوره مدنية نجد الجزء التاسع والعشرين جميع سوره مكية إلا سورة الإنسان، وعلى ذلك تتابعت إشارات المؤلف إلى السور المكية في الجزء التاسع والعشرين وهي سور الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة والمرسلات كما يلي:

سورة الملك:

هذا الجزء كله من السور المكية. ولكل منها طابع مميز، وطعم خص.. وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة ((المدثر)) ومطلع سورة ((المزمل)). كما أن فيه سورًا يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة ((القلم)). وبحوالي عشر سنوات كسورة ((الجن)) التي يروى أنها نزلت في عودة رسول الله ﷺ من الطائف، حيث أوذي من ثقيف. ثم صرف الله إليه نفرًا من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن، مما حكته سورة الجن في هذا الجزء. وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين.

والقرآن المكي يعالج - في الغالب - إنشاء العقيدة. في الله وفي الوحي، وفي اليوم الآخر. وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه. والتعريف بالخالق تعريفًا يجعل الشعور به حيًا في القلب، مؤثرًا موجهًا موحيًا بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب، وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب، وبالقيم والموازين التي يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص.

وهذه السورة الأولى - سورة تبارك - تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود.

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من صور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك، وتنفض الغبار، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون.

سورة القلم:

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها. كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولًا، وأن سائرها نزل أخيرًا - ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال.

ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا. حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة، التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية.

سورة الحاقة:

هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس، وتطالعه بالهول القاصم، والجد الصارم، والمشهد تلو المشهد، كله إيقاع ملح على الحس، بالهول آنًا وبالجلال آنًا، وبالعذاب

آنًا، وبالحركة القوية في كل آن !

والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساسًا واحدًا بمعنى واحد.. أن هذا الأمر، أمر الدين والعقيدة، جد خالص حازم جازم. جد لا هزل فيه. ولا مجال فيه للهزل. جد في الدنيا وجد في الآخرة، وجد في ميزان الله وحسابه. جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرًا ولا قليلًا. وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم، وأخذه الحاسم. ولو كان الذي يلتفت عنه هو الرسول. فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر.. إنه الحق.. حق اليقين. من رب العالمين.

يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة، والذي سميت به السورة ((الحاقة)).. وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار. وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلًا، ثم استقراره استقرارًا مكينًا. رفعه في مادة الحاء بالألف، وجده في تشديد القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة.

ويبرز في مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قومًا بعد قوم، وجماعة بعد جماعة، مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة.

سورة المعارج:

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطئ، المديد، العميق، الدقيق، لعقابيل[1] الجاهلية في النفس البشرية كما واجهها القرآن في مكة ؛ وكما يمكن أن يواجهها في أي جاهلية أخرى مع اختلافات في السطوح لا في الأعماق ! وفي الظواهر لا في الحقائق !

أو هي جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه

(١) شدائد ومصائب.

النفس، وفي خلال دروبها ومنحنياتها، ورواسبها وركامها. وهي أضخم وأطول من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون - فيما بعد - كما أن هذه الرواسب وتلك العقابيل هي أكبر وأصعب من القوى التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتي ما تزال مرصودة لها في الجاهليات القديمة والحديثة ! والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ؛ وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين، كما أوعدهم القرآن الكريم. وهي تلم - في طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة - بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسراء. وهي حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان. كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك، واستحقاقها للتكريم. وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين.. وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس في تقدير الله وتقدير البشر، واختلاف الموازين...

سورة نوح:

هذه السورة كلها تقصّ قصة نوح عليه السلام مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية، وشوطًا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل.

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة، الضالة، الذاهبة وراء القيادات المضللة، المستكبرة عن الحق، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق، المرقومة في كتاب الكون المفتوح، وكتاب النفس المكنون.

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني، وعنايته بأن يهتدي. تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل

تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى.

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة. وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية، ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم

سورة الجن:

هذه السورة تبده الحس - قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها - بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها.. إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع، قوية التنغيم، ظاهرة الرنين ؛ مع صبغة من الحزن في إيقاعها، ومسحة من الأسى في تنغيمها، وطائف من الشجي في رنينها، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها، ثم روح الإيحاء فيها. وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة، عطفًا مصحوبًا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ.

سورة المزمل:

يُروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشًا اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي ﷺ وللدعوة التي جاءهم بها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاغتنم له ؛ والتف بثيابه وتزمل ونام مهمومًا. فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول.

سورة المدثر:

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة (المزمل). فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق، وروايات أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي ﷺ.

سورة القيامة:

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد، والإيقاعات واللمسات، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه.. تحشدها بقوة، في أسلوب خاص، يجعل لها طابعًا قرآنيًا مميزًا، سواء في أسلوب الأداء التعبيري، أو أسلوب الأداء الموسيقي، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوري قوي، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضًا!

سورة المرسلات:

هذه السورة حادة الملامح، عنيفة المشاهد، شديدة الإيقاع، كأنها سياط لاذعة من نار. وهي تُوقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة، حيث يُوَاجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات، تنفذ إليه كالسهام المسنونة!

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة، وحقائق الكون والنفس، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض. وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار.

ولما وصل المؤلف إلى الجزء الثلاثين وهو آخر أجزاء القرآن الكريم قدم لهذا الجزء قائلًا:

هذا الجزء كله بداية من سورة النبأ وحتى سورة الناس عدا سورتي البينة والنصر، سور مكية وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر. والأهم من هذا

هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة - على وجه التقريب - في موضوعها واتجاهها، وإيقاعها، وصورها وظلالها، وأسلوبها العام.

إنها طَرَقات متوالية على الحس. طرقات عنيفة قوية عالية. وصيحات. صيحات بقوم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثَقَّل حسّهم الخمار ! أو بلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد: اصحوا. استيقظوا. انظروا. تلفتوا. تفكروا. تدبروا.. إن هنالك إلهًا. وإن هنالك تدبيرًا. وإن هنالك تقديرًا. وإن هنالك ابتلاءً. وإن هنالك تبعة. وإن هنالك حسابًا. وإن هنالك جزاء. وإن هنالك عذابًا شديدًا. ونعيمًا كبيرًا.. اصحوا. استيقظوا. انظروا تلفتوا تفكروا تدبروا وهكذا مرة أخرى وثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزًا عنيفًا.. وهم كأنما يفتحون أعينهم ينظرون في خمار مرة، ثم يعودون لما كانوا فيه ! فتعود اليد القوية تهزهم هزًا عنيفًا ؛ ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد ؛ وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب.. وأحيانًا يتيقظ النوام ليقولوا:في إصرار وعناد: لا.. ثم يحصبون الصائح المنذر المنبه بالأحجار والبذاء.. ثم يعودون لما كانوا فيه. فيعود إلى هزهم من جديد.

هكذا خُيِّل إلي وأنا أقرأ هذا الجزء. وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد، عظيمة القدر، ثقيلة الوزن. وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب. وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس. وعلى أحداث معينة في يوم الفصل. وأرى تكرارها مع تنوعها. هذا التكرار الموحي بأمر وقصد !

وهكذا يحس القارئ وهو يقرأ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ [عبس:٢٤].. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق:٥]... ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ .

[الغاشية:١٧-٢٠]

وهو يقرأ: ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣].

..﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ [النبأ:٦-١٥] .

... ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢] .

وهو يقرأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار:٦-١٠] ، ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ [الأعلى:١-٥]..﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾..[التين:٤-٧].

وهو يقرأ: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا

ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.. [التكوير١-١٣]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.. [الانفطار:١-٤]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ...﴾ [الإنشقاق:١-٥] ، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة:١-٣].

وهو يقرأ اللمحات والسبحات الكونية في مفاتح عدد من السور وفي ثناياها: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٥-٢٠] ، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق:١٦-١٧] ، ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:١-٤]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:١-٨]، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل:١-٣] ، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١،٢]، الخ..

وفي الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان. وعلى مشاهد هذا الكون وآياته في كتابه المفتوح. وعلى مشاهد القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية. ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها.. واتخاذها جميعًا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة. مع التقريع بها والتخويف والتحذير.. وأحيانًا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين. والأمثلة على هذا هي الجزء كله. ولكنا نشير إلى بعض النماذج في هذا التقديم:

وسورة النبأ كلها نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد. ومثلها سورة «النازعات» وسورة «عبس» تحتوي مقدمتها إشارة إلى حادث معين من حوادث الدعوة.. وبقيتها كلها حديث عن نشأة الحياة الإنسانية والحياة النباتية ثم عن الصاخة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٣٤-٤١] .

وسورة «التكوير» وهي تصور مشاهد الانقلاب الكوني الهائلة في ذلك اليوم، مع عرض مشاهد كونية موحية في صدد القسم على حقيقة الوحي وصدق الرسول. وسورة «الانفطار» كذلك في عرض مشاهد الانقلاب مع مشاهد النعيم والعذاب، وهز الضمير البشري أمام هذه وتلك: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ...﴾ [الانفطار:٦] إلخ وسورة «الانشقاق» وهي تعرض مشاهد الانقلاب الكوني ومشاهد النعيم والعذاب.. وسورة «البروج» وهي تلقي إيقاعات سريعة حول مشاهد الكون ومشاهد اليوم بصدد إشارة إلى تعذيب الكفار لجماعة من المؤمنين في الدنيا بالنار. وعذاب الله لأولئك الكفار في الآخرة بالنار. وهو أشد وأنكى..

وسورة «الطارق».. وهي تعرض مشاهد كونية مع نشأة الإنسان ونشأة النبات للقسم بالجميع: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣، ١٤].. وسورة «الأعلى» وتتحدث عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية، وإخراج المرعى وأطواره تمهيدًا للحديث عن الذكر والآخرة والحساب والجزاء.. وسورة «الغاشية» .. وهي تصوير لمشاهد النعيم والعذاب. ثم توجيه إلى خلق الإبل والسماء والأرض والجبال.. وهكذا.. وهكذا.. إلى نهاية الجزء باستثناء سور قليلة تتحدث عن حقائق العقيدة ومنهج الإيمان. كسورة الإخلاص. وسورة الكافرون. وسورة الماعون. وسورة

العصر. وسورة القدر. وسورة النصر. أو تُسرِّي عن رسول الله ﷺ وتواسيه وتوجهه إلى الاستعاذة بربه من كل شر، كسور الضحى. والانشراح. والكوثر. والفلق. والناس.. وهي سور قليلة على كل حال.. وهنا كظاهرة أخرى في الأداء التعبيري لهذا الجزء. هناك أناقة واضحة في التعبير، مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال في الوجود والنفوس، وافتنان مبدع في الصور والظلال والإيقاع الموسيقي والقوافي والفواصل، تتناسق كلها مع طبيعته في خطاب الغافلين النائمين السادرين، لإيقاظهم واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات.. يتجلى هذا كله بصورة واضحة في مثل تعبيره اللطيف عن النجوم التي تخنس وتتوارى كالظباء في كناسها وتبرز، وعن الليل وكأنه حي يعس في الظلام، والصبح وكأنه حي يتنفس بالنور: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٥-١٨] وفي عرضه لمشاهد الغروب والليل والقمر: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ [الانشقاق:١٦-١٨]. أو لمشاهد الفجر والليل وهو يتمشى ويسري: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر:١-٤]. ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ [الضحى:١-٢] وفي خطابه الموحي للقلب البشري: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾.. [الانفطار:٦، ٧] وفي وصف الجنة: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ... ﴾ [الغاشية: ٨-١١] ووصف النار: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾ [القارعة: ٨-١١].. والأناقة في التعبير واضحة وضوح القصد في اللمسات الجمالية لمشاهد الكون وخوالج النفس.

والعدول أحيانا عن اللفظ المباشر إلى الكناية، وعن اللفظ القريب إلى الاشتقاق البعيد، لتحقيق التنغيم المقصود، مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب..

وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته في الكون والنفس، والدنيا والآخرة ؛ واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرا في الحس والضمير.

وهي تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة التي يختلفون عليها، وهي أمر عظيم لا خفاء فيه، ولا شبهة ؛ ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ:١-٥].

ومن ثم يعدل السياق عن المعنى في الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه، ويلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم وحولهم، في ذوات أنفسهم وفي الكون حولهم من أمر عظيم، يدل على ما وراءه ويوحي بما سيتلوه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ:٦-١٦] .

ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، والذي هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ما هو؟ وكيف يكون: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ:١٧-٢٠] .

ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢

لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٢١-٣٠].

ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقًا:﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣١-٣٦] .

وتختم السورة بإيقاع جليل في حقيقته وفي المشهد الذي يعرض فيه. وبإنذار وتذكير قبل أن يجيء اليوم الذي يكون فيه هذا المشهد الجليل:﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ [النبأ:٣٧-٤٠].

ذلك هو النبأ العظيم. الذي يتساءلون عنه. وذلك ما سيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم!

القرآن المدني:

مدخل إلى القسم المدني:

كرر المؤلف في خواطره عن السور المدنية ذكر إطار جامع لتلك السور هذا الإطار يقول القرآن المدني هو بيان المنهج الرباني لهذه الجماعة المسلمة، ومنهج التصور والعبادة، ومنهج السلوك والمعاملة كذلك اشتمل القرآن المدني على حوار أهل الكتاب ورد شبهاتهم، ودحض مفترياتهم فضلًا عن تسجيل أصول هذا الجيل الرائد للجماعة المسلمة من حرب وسلم وعلم...إلخ

فالقرآن المنزل في المدينة يواجه كل الملابسات المحيطة بنشأة الجماعة المسلمة...

كما يصور طبيعة أعداء هذه الجماعة وأعداء منهجيتها... فها هي رواسب الجاهلية تتصارع مع المنهج الجديد، والقيم الجديدة ونرى الجاهلية تحاول طمس الجديد.

وبعد، فننتقل إلى السور التي نزلت في المدينة بداية من سورة البقرة:

من أوائل ما نزل بالمدينة، ولم تنزل آياتها كلها متوالية، ولكن تخلل نزولها نزول آيات من سور أخرى. وهي تضم عدة موضوعات، ويجمعها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطًا شديدًا، وهذان الخطان: أولهما التعريف ببني إسرائيل وموقفهم من الإسلام وتاريخهم الأسود مع الله وكتبه ورسله وحتى رسول الله محمد ﷺ، والخط الثاني تأسيس المجتمع المسلم ووضع الأعمدة ورفع اللبنات الأولى منه.

وتضم السورة وصفًا مطولًا للمنافقين، وذلك خلال رسمها لشبكة المجتمع المدني من ثلاث طوائف: المتقين والكافرين والمنافقين.

وتلاحظ من توالي آيات السورة أن الكافرين من أهل الكتاب اليهود لم يتركوا حركة ولا فعلًا ولا قولًا للوحي وللنبي إلا وأثاروا حوله الجدل، وادعوا التناقض... كما تراهم في دعاويهم فإن إبراهيم كان يهوديًا، وافترائهم على مريم، وتحريفهم للكتب وإنكارهم توجه المسلمين في صلاتهم إلى الأقصى أولًا ثم الكعبة ثانيًا... فها نحن أمام تاريخ مطول لهؤلاء الكافرين.

ثم نعرض ما كتبه المؤلف عن مفاهيم سورة آل عمران:

تمثل هذه السورة قطاعًا حيًا من حياة الجماعة المسلمة في المدينة خصوصًا بعد غزوة بدر، فها هي السورة تتعرض لغزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها من شرور، كما أن صدر السورة يفتح نافذة عريضة على شبهات النصارى خصوصًا في قمة الاعتقاد.

والسورة تقوم على ثلاثة خطوط عريضة، أول هذه الخطوط بيان معنى الدين بصفة عامة ومعنى الإسلام بصفة خاصة، وثاني الخطوط يصور حال المسلمين مع ربهم وتلقيهم عنه واستسلامهم له ورضائهم بقضائه وقدره، وآخر هذه الخطوط هو تحذير الأمة من موالاة غير المؤمنين.

ويذهب المؤلف إلى سورة النساء فيكتب:

وتضم السورة مجموعة من التشريعات اللازمة لصيانة المجتمع، مثل حماية اليتامى ثم الإناث خاصة، وتنظيم العلاقات الزوجية ثم المواريث ونظامها وحماية المجتمع من الفاحشة. ثم توجيهات.مثل ضرورة الأمانة ورد الأمانات إلى أصاحبها.. كما كررت السورة ذكر الإطار الأعظم الذي يجمع ويعصم الفرد والمجتمع من السقوط. هذا الإطار هو الأمر الواضح المتكرر بطاعة الله ورسوله... كما عرضت السورة على بعض ألوان الجهاد ومقاومته.

ثم إلى سورة الأنفال التي قال في معانيها ما يلي:

نزلت سورة الأنفال التي نعرض لها هنا بعد سورة البقرة.. نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة بعد تسعة عشر شهرًا من الهجرة على الأرجح. ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة لا يمثل حقيقة نهائية. فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة، بل إن منها ما نزل في أوائل العهد بالمدينة، ومنها ما نزل في أواخر هذا العهد. وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات! الأنفال نزلت بين هذين الموعدين، وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة، تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين.

هذه السورة نزلت في غزوة بدر الكبرى.. وغزوة بدر- بملابساتها وبما ترتب عليها في تاريخ الحركة الإسلامية وفي التاريخ البشري جملة- تقوم معلمًا ضخمًا في طريق تلك الحركة وفي طريق هذا التاريخ.

وعندما وصل المؤلف إلى سورة المائدة كتب:

في ثنايا هذه السورة ؛ يتوارد تقرير الألوهية الواحدة ؛ ونفي كل شرك أو تثليث أو خلط بين ذات الله - سبحانه - وبين غيره. أو بين خصائص الألوهية، وخصائص العبودية على الإطلاق: يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام. ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. ويهديهم إلى صراط مستقيم. لقد كفر الذين قالوا:إن الله هو المسيح ابن مريم. قل. فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا؟ ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء. والله على كل شيء قدير. وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه ! قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق. يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما، وإليه المصير. يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل، أن تقولوا: ماجاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير. والله على كل شيء قدير..﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٧٢-٧٣].

وها هي خواطر المؤلف عن سورة التوبة:

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن - إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن - ومن ثم قد تضمنت أحكامًا نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض، كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه

ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفًا دقيقًا مصورًا مبينًا....

والسورة - بهذا الاعتبار - ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطوته - تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها - وهذه المراجعة تكشف عن مدي مرونة ذلك المنهج وعن مدي حسمه كذلك، وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد، كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكامًا مرحلية فجعلت نهائية، ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية، وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى. مما نرجو أن يوفقنا الله لإيضاحه وبيانه في هذا التقديم، وفي ثنايا استعراض النصوص القرآنية للسورة.

ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية ومراجعة ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته، ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك.... يتبين أن السورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة ولكنها لم تنزل دفعة واحدة.....

وقد صاغ المؤلف في تفسير سورة الرعد ما يلي:

أقرأ هذه السورة الآن- سورة الرعد - وكأنما أقرؤها لأول مرة، وقد قرأتها من قبل وسمعتها ما لا أحصيه من المرات. ولكن هذا القرآن يعطيك بمقدار ما تعطيه؛ ويتفتح عليك في كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإيحاءات وإيقاعات بقدر ما تفتح له نفسك؛ ويبدو لك في كل مرة جديدًا كأنك تتلقاه اللحظة، ولم تقرأه أو تسمعه أو تعالجه من قبل.

كثيرًا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر؛ المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني !

وهذه السورة كلها - شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها - من بين هذه النصوص التي لا أكاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح.

وإنني لأدرك الآن - بعمق - حقيقية الفارق بين جيلنا الذي نعيش فيه والجيل الذي تلقي مباشرة هذا القرآن. لقد كانوا يخاطبون بهذا القرآن مباشرة؛ ويتلقون في حسهم، وصوره وظلاله؛ وإيحاءاته، وإيماءاته، وينفعلون بها انفعالًا، ويستجيبون لها استجابة مباشرة. وهم يتحركون به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلولاته في تصورهم. ومن كانوا يحققون في حياة البشر القصيرة تلك الخوارق التي حققوها. بالانقلاب المطلق الذي تم في قلوبهم ومشاعرهم وحياتهم، ثم بالانقلاب الآخر الذي حققوه في الحياة من حولهم، وفي أقدار العالم كله يومذاك، وفي خط سير التاريخ إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

لقد كانوا ينهلون مباشرة من معين هذا القرآن بلا وساطة. ويتأثرون بإيقاعه في حسهم فمًا لأذن، وينضجون بحرارته وإشعاعه وإيحائه؛ ويتكيفون بعد ذلك وفق حقائقه وقيمه وتصوراته.

أما نحن اليوم فنتكيف وفق تصورات فلان وفلان عن الكون والحياة والقيم والأوضاع. وفلان وفلان من البشر القاصرين أبناء الفناء.

ثم ننظر نحن إلى ما حققوه في حياتهم من الخوارق في ذات أنفسهم وفي الحياة من حولهم، فنحاول تفسيرها وتعليلها بمنطقنا الذي يستمد معاييره من قيم وتصورات ومؤثرات غير قيمهم وتصوراتهم ومؤثراتهم. فنخطئ ولا شك في تقدير البواعث وتعليل الدوافع وتفسير النتائج.. لأنهم هم خلق آخر من صنع هذا القرآن..

ثم وصل إلى سورة الحج فسرد هذه العبارات:

هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها. وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال (آيات ٣٨-٤١). وآيات العقاب بالمثل (الآية: ٦٠) فهي مدنية قطعًا. فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة.

وفي سورة النور نجده يسطر الكلمات التالية:

هذه سورة النور.. يذكر فيها النور بلفظه متصلًا بذات الله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النور:٣٥] ويذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح؛ ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة. وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية، تنير القلب، وتنير الحياة؛ ويربطها بذلك النور الكوني الشامل إنها نور في الأرواح، وإشراق في القلوب، وشفافية في الضمائر، مستمدة كلها من ذلك النور الكبير.

وفي معاني سورة الأحزاب قال:

هذه السورة تتناول قطاعًا حقيقيًا من حياة الجماعة المسلمة، في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى ما قبل صلح الحديبية، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين في المدينة تصويرًا واقعيًا مباشرًا. وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي أنشأتها أو أقرتها في المجتمع الإسلامي الناشئ.

وأما سورة محمد، فقد علق على مواضيعها بكلماته التالية:

هذه السورة مدنية، ولها اسم آخر. اسمها سورة القتال. وهو اسم حقيقي لها. فالقتال هو موضوعها. والقتال هو العنصر البارز فيها. والقتال في صورها وظلالها. والقتال في جرسها وإيقاعها.

ونأتي لشرح سورة الفتح فنراه قد كتب:

هذه السورة مدنية، نزلت في السنة السادسة من الهجرة، عقب صلح الحديبية؛ وهي تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته؛ وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها في إبانة: فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة «محمد» التي تسبقها في ترتيب المصحف، نحو من ثلاث سنوات، تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة في أحوال الجماعة المسلمة في المدينة. تغيرات في موقفها وموقف المناوئين لها، وتغيرات أهم في حالتها النفسية وصفتها الإيمانية، واستوائها على المنهج الإيماني في إدراك ونضج عميق.

وفي بيان معاني سورة الأحقاف نجده قد نظم تلك العبارات:

هذه السورة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية. حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقًا عالية وآمادًا بعيدة؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات !

وهي تُبْرِز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير.

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه أولًا، وصيانته أخيرًا.. عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله.. عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة.. عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره. أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه. وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانته. وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتسق معه؛ فيتوافى باطل هذا العالم

وظاهره، وتتلافى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله.. ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم. بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق. كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها. بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة، والدولة بالأفراد؛ وتتلاقى واجباتها ونشاطها في تعاون واتساق.

ونصل إلى سورة الرحمن فنجده قد كتب هذه الكلمات:

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ. إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة، في جميل صنعه، وإبداع خلقه؛ وفي فيض نعمائه؛ وفي تدبيره للوجود وما فيه؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجه الكريم.. وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين: الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء، في ساحة الوجود، على مشهد من كل موجود، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله، تحديًا يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها، ويجعل الكون كله معرضًا لها، وساحة الآخرة كذلك.

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله، وفي إيقاع فواصلها.. تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى، وامتداد التصويت إلى بعيد؛ كما تتجلى في المطلع الذي يستثير الترقب والانتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار الرحمن.. كلمة واحدة. مبتدأ مفردًا.. الرحمن كلمة واحدة في معناها الرحمة، وفي رنتها الإعلان، والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمن.

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان. تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان.

ثم يذكر خلق الإنسان، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى... البيان.

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله.. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء المرفوعة. والميزان الموضوع. والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان. والجن والإنس. والمشرقان والمغربان. والبحران بينهما برزخ لا يبغيان، وما يخرج منهما وما يجري فيهما.

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبرى. عرض مشهد فنائها جميعًا. مشهد الفناء المطلق للخلائق، في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي. الذي إليه تتوجه الخلائق جميعًا، ليتصرف في أمرها بما يشاء.

ولما وصل إلى سورة الحديد، صاغ عباراته التالية:

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها. هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله، فلا تضن عليها بشيء، ولا تحجز دونها شيئًا.. لا الأرواح ولا الأموال، ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور.. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض. موازينها هي موازين الله، والقيم التي تعتز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين. كما أنها هي الحقيقة التي تشعر بها القلوب بحقيقة الله، فتخشع لذكره، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها على الفرار إليه.

وها نحن قد وصلنا إلى الجزء التاسع والعشرين لنرى الخواطر التي كتبها المؤلف في سور المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق والتحريم كما يلي:

سورة المجادلة:

نحن في هذه السورة – وفي هذا الجزء كله تقريبًا – مع أحداث السيرة في المجتمع المدني.مع الجماعة المسلمة الناشئة، حيث تُربَّى تُقّوم، وتُعَدُّ للنهوض

بدورها العالمي، بل بدورها الكوني، الذي قدره الله في دورة هذا الكون ومقدّراته. وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة، في نفوس هذه الجماعة، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور كذلك.. وهو دور ضخم إذن يقتضي إعدادًا كاملًا.

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم، ناسًا من الناس. منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم، واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة، وخلصت نفوسهم لها، ووصلوا..

وصلوا إلى حقيقة وجودهم في حقيقة هذا الوجود الكبير، واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود، فأصبحوا بهذا طرفًا من قدر الله في الكون، لا يجدون في أنفسهم عوجًا عنه، ولا يجدون في خطاهم تخلفًا عن خطاه، ولا يجدون في قلوبهم شيئًا إلا الله..

سورة الحشر:

نزلت هذه السورة في حادث بني النضير - حي من أحياء اليهود - في السنة الرابعة من الهجرة. تصف كيف وقع؟ ولماذا وقع؟ وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية.. ترويها بطريقة القرآن الخاصة، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات.

وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية في السورة، نعرض شيئًا مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذي نزلت السورة بشأنه، لنرى ميزة العرض القرآني، وبعد آماده وراء الأحداث التي تتنزل بشأنها النصوص، فتفي بمقتضيات الأحداث، وتمتد وراءها وحولها في مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك

الأحداث المحدودة بالزمان والمكان.

سورة الممتحنة:

هذه السورة حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي والدولة في المجتمع المدني. حلقة من تلك السلسلة الطويلة، أو من ذلك المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة، التي ناط بها الله تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية، في صورة واقعية علمية، كما يستقر في الأرض نظامًا ذا معالم وحدود شخصية مميزة، تبلغ إليه البشرية أحيانًا، وتقصر عنه أحيانًا، ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه، وتبقى أمامها صورة واقعية منه، تحققت يومًا في هذه الأرض.

سورة الصف:

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى هذين الأمرين الأساسيين:

تستهدف أولًا أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي المباشر في صورته الأخيرة، سبقته صور منه تناسب أطوارًا معينة في تاريخ البشرية، وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد، الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات. وأن يظهره على الدين كله في الأرض..

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلّوا، ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض.

سورة الجمعة:

نزلت هذه السورة بعد سورة (الصف) السابقة. وهي تعالج الموضوع الذي

عالجته سورة الصف، ولكن من جانب آخر، وبأسلوب آخر، وبمؤثرات جديدة.

إنها تعالج أن تقر في أخلاد الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيرًا لحمل أمانة العقيدة الإيمانية، وأن هذا فضل من الله عليها، وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر، وتقتضى كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول، واحتملت الأمانة، وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبتة، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد. بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء، وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارًا، ولا وظيفة له في إدراكها، ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين. من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة. ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة، وضمتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان.

سورة المنافقون:

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص (المنافقون) الدال على موضوعها.. ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين، ووصف أحوالهم ومكائدهم. فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحًا أو تصريحًا. ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم.

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم

ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب.

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين، ولو من بعيد. وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله، والغفلة عن ذكره اشتغالًا بالأموال والأولاد، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات.

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله ﷺ ولم تنقطع في أي وقت تقريبًا، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين.. هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها، وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرًا، وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين.

سورة التغابن:

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها، وبخاصة المقاطع الأولى منها. فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة.

سورة الطلاق:

هذه سورة الطلاق، يبين الله فيها أحكامه، ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى (سورة البقرة) التي تضمنت بعض أحكام الطلاق، ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شئون الأسرة. وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته.

سورة التحريم:

هذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله ﷺ وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض، وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته ﷺ وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك.. ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه.

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محددًا. ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش قطعًا.

ونصل إلى الجزء التاسع والعشرين لنرى ما سطر الكاتب في بيان سورة الإنسان فهي السورة المدنية الوحيدة في الجزء:

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية، ولكنها مكية ؛ ومكيتها ظاهرة جدًا، في موضوعها وفي سياقها، وفي سماتها كلها. لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها. بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي.. تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة، وصور العذاب الغليظ، كما يشي به توجيه الرسول ﷺ إلى الصبر لحكم ربه، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؛ مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة، مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول ﷺ على الحق الذي نزل عليه، وعدم الميل إلى ما يدهنون به.. كما جاء في سورة القلم، وفي سورة المزمل، وفي سورة المدثر، مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة.. واحتمال أن هذه السورة مدنية – في نظرنا – هو احتمال ضعيف جدًا، يمكن عدم اعتباره!.

وفي نهاية التنزيل المدني جاءت خواطر المؤلف حول سورتي البينة والنصر كما يلي:

سورة البينة:

هذه السورة معدودة في المصحف وفي أكثر الروايات أنها مدنية. وقد وردت بعض الروايات بمكيتها. ومع رجحان مدنيتها من ناحية الرواية، ومن ناحية أسلوب التعبير التقريري، فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده. وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة. فقد ورد ذكر أهل الكتاب في بعض السور المقطوع بمكيتها. وكان في مكة بعض أهل الكتاب الذين آمنوا، وبعضهم لم يؤمنوا. كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول ﷺ في مكة وآمنوا كما هو معروف. وورد ذكر الزكاة كذلك في سور مكية.

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري هو الذي يرجح أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بهذا.

والحقيقية الأولى هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:١-٣].

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤].

والحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده بسيطة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

والحقيقة الرابعة: أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية. ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافًا بينًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة٦-٨]..

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة. وفي التصور الإيماني كذلك.

سورة النصر:

هذه السورة الصغيرة.. كما تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا ؛ وكما توجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار..

كما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه.. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، والانطلاق والتحرر.. هذه القمة السامقة الوضيئة، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام. ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي هذا الهدف العلوي الكريم.

***

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**» وقال: «**إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذ رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابًا**» فقد رأيتها..

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣].. [ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص]..

وقال ابن كثير في التفسير: والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة. قولًا واحدًا. فإن أحياء العرب كانت تتلوم (أي تنتظر) بإسلامها فتح مكة يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجًا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانًا، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون: دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي.. ((الحديث))..

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١] فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجيء بعد ذلك، مع توجيه النبي ﷺ إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة.

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس ؛ لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها..

قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن

سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم. فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال: ما تقولون في قول الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١]؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم ولم يقل شيئًا. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ «فقلت لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١] فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:٣]. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول [تفرد به البخاري].

فلا يمتنع أن يكون الرسول ﷺ حين رأى ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل، وأنه سيلقي ربه قريبًا. فكان هذا المعنى قول ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له.. إلخ..

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي - بإسناده - عن ابن عباس كذلك: قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١] دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: «**إنه قد نعيت إليّ نفسي**» فبكت. ثم ضحكت. وقال أخبرني: أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «**اصبري فإنك أول أهلي لحوقًا بي**» فضحكت.

ففي هذا الحديث تحديد لنزول السورة. فكأنها نزلت والعلامة حاضرة. أي أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجًا قد تحقق. فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ﷺ أنه أجله.. إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقًا مع ظاهر النص القرآني. وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى

تتفق مع هذا الذي نرجحه.. عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: «دعا رسول الله ﷺ فاطمة عام الفتح فناجاها، فبكت، ثم ناجاها فضحكت. قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عن بكائها وضحكها. قالت: أخبرني رسول الله ﷺ أنه يموت، فبكيت، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران. فضحكت.. [أخرجه الترمذي].

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني، ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه. من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ﷺوربه وهي: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١] فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة -رضي الله عنها- بما روته عنها أم سلمة -رضي الله عنها.

عن المؤلف سيد قطب

نشأة قروية: ولد سيد قطب لأسرة شريفة في مجتمع قروي (صعيدي) في يوم ٩/ ١٠/ ١٩٠٦م بقرية موشا بمحافظة أسيوط، وهو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبره بجيل كامل. وكانت أمه تعامله معاملة خاصة وتزوده بالنضوج والوعي حتى يحقق لها أملها في أن يكون متعلمًا مثل أخواله.

كما كان أبوه راشدًا عاقلًا وعضوًا في لجنة الحزب الوطني وعميدًا لعائلته التي كانت ظاهرة الامتياز في القرية، واتصف بالوقار وحياة القلب، يضاف إلى ذلك أنه كان دَيِّنًا في سلوكه. ولما كتب سيد قطب إهداء عن أبيه في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن» قال: «لقد طبعتَ فيّ وأنا طفل صغير مخافة اليوم الآخر، ولم تعظني أو تزجرني، ولكنك كنت تعيش أمامي، واليوم الآخر ذكراه في ضميرك وعلى لسانك.. وإن صورتك المطبوعة في مُخيلتي ونحن نفرغ كل مساء من طعام العشاء، فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها إلى روح أبيك في الدار الآخرة، ونحن أطفالك الصغار

نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل أن نجيد حفظها كاملات».

وعندما خرج إلى المدرسة ظهرت صفة جديدة إلى جانب الثقة بالذات من أمه والمشاعر النبيلة من أبيه وكانت الإرادة القوية، ومن شواهدها حفظه القرآن الكريم كاملًا بدافع من نفسه في سن العاشرة؛ لأنه تعود ألا يفاخره أبناء الكتاتيب بعد إشاعة بأن المدرسة لم تعد تهتم بتحفيظ القرآن. وفي فورة الإحساس والثقة بالنفس كان لظروف النضال السياسي والاجتماعي الممهدة لثورة ١٩١٩ أثر في تشبعه بحب الوطن، كما تأثر من الثورة بالإحساس بالاستقلال وحرية الإرادة، وكانت دارهم ندوة للرأي، شارك سيد قطب فيها بقراءة جريدة الحزب الوطني، ثم انتهى به الأمر إلى كتابة الخطب والأشعار وإلقائها على الناس في المجامع والمساجد.

وعندما خرج إلى المدرسة ظهرت صفة جديدة إلى جانب الثقة بالذات من أمه والمشاعر النبيلة من أبيه وكانت الإرادة القوية، ومن شواهدها حفظه القرآن الكريم كاملًا بدافع من نفسه في سن العاشرة؛ لأنه تعود ألا يفاخره أبناء الكتاتيب بعد إشاعة بأن المدرسة لم تعد تهتم بتحفيظ القرآن.

ب- تطور وظيفي:

بعد مرور طبيعي علي خطوط النظام التعليمي المصري في ذلك الوقت من صدر القرن العشرين (الابتدائي - كفاءة المعلمين المتوسطة - تجهيزية دار العلوم - ليسانس دار العلوم) تخرج سيد قطب ليبدأ عمله مدرسًا ونظرًا لتميزه ونشاطه ثم انتدابه لديوان عام وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم حاليًا) ثم نال بعثة لمدة عام لأمريكا كان لها أثر بالغ في تحولات شخصيته وأفكاره وعالمه المفضل.... وبعد مبايعته للإخوان عمل رئيسًا لتحرير جريدة الإخوان المسلمين واتجه إنتاجه الفكري اتجاهًا آخر غير الذي كان. فقد كان سيد قطب قبل مبايعته للإخوان مدرسا في دمياط ثم بني سويف وأخيرًا مدرسة حلوان الابتدائية ثم مفتشًا للتعليم الابتدائي

ثم انتقل إلي الإدارة العامة للثقافة الذي كان يرأسها أحمد أمين.

ج- مرحلة فقد الاتزان:

وقد مر قطب بمرحلة فقدان الاتزان - ففي الثلاثينيات من القرن العشرين بلغت به علمانية واستغراق الفكرة الغربية لكيانه أن جرفه التيار إلي كتابة مقال في الأهرام ١٧ - ٥ ١٩٣٤ دعا فيه دعوة صريحة إلي العري التام ويعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وكان ذلك تواصلًا منه مع صيحة عالية الصوت في الفضاء الأوروبي.

وقد كتب هذه الإشارة لا لشيء إلا ليتعلم الجميع أن لا حرج مهما بلغ الخطأ وأنه لا بد من التواصل والدعوة ثم الترحيب بالعائد.

د- بعثه لأمريكا عام ١٩٤٨:

وقد دون ذكرياته من الرحلة في مقالات كثيرة نشرتها مجلة الرسالة...

أدرك قطب -رحمه الله- أن هذه البعثة مقدمة لحاجة هامة في نفس أصحابها وليست لنفعه هو... إذ لمح أنها بعثة خاصة لفرد واحد لم تعلن لاختيار من يناسبها من بين الراغبين بل كانت بعثة خاصة مثل دعوة خاصة.. فالمنتظر منها فائدة صانعها وليس المصنوع له.

لهذا... كان -رحمه الله- واعيًا مدققًا حتى لقد رجع ليس كما يريد أصحاب البعثة وصانعوها من تطوير لتغريبه ودعم لعلمانيته.. بل ولا حتى كما كان مستغربًا غارقًا في أوحال التبعية الغربية بل رجع -رحمه الله- كما قال أهل المدينة -لقد رجع سعد بوجه غير الذي فارقكم به- نعم رجع سيد قطب من بعثة أمريكا بوجه وقلب وعقل غير الذي ذهب بهما عقل نادم على ما فات ناقم على الصليبية والغرب مستشرق للبحث عن الفطرة الصحيحة والطريق القويم.

هـ- الحياة الفكرية:

وفي ناحية الفكر بدا معجبًا بطه حسين ثم تحول إعجابه إلي العقاد.. وانتمي للوفد حيث إن العقاد كان في تلك الفترة كاتب الوفد الأول فلما رأي قيود الحزبية لا تفتح له للتحديد.

انتقل قطب إلي حزب الهيئة السعدية (الحزب السعدي)لأنه من أحزاب الأقليات التي تتسع لمثل حالته ولا نغفل أن قطبًا كان من أشد المعجبين بالعقاد فقد تابعه في حدة غير مبررة علي المرحوم الرافعي - لا لشيء إلا أن العقاد كان يعاديه.

و- مؤلفات سيد قطب في المرحلة الأولى:

١ - كتب وشخصيات (١٩٤٦)

٢- النقد الأدبي (أصوله ومناهجه)

٣-الشاطئ المجهول (ديوان شعر) المكتبة التجارية ١٩٣٥

٤- الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع إخوته) لجنة النشر للجامعيين

٥- طفل من القرية (سيرة ذاتية)

٦- المدينة المسحورة (قصة طويلة) دار المعارف ١٩٤٦

٨- أشواك (قصة قصيرة)

٩- روضة الأطفال بالاشتراك مع دار المعارف

١٠- قصص الأنبياء بالاشتراك مع مصر بالفجالة

١١- الجديد في اللغة العربية (دار المعارف)

١٢- الجديد في المحفوظات (دار المعارف)

١٣- مهمة الشاعر

openkan.com

١٤- مشاهد القيامة في القرآن الكريم

١٥- النقد الأدبي (دار الفكر) ١٩٤٨

في المرحلة الثانية:

مع الإخوان (رئيسًا مشاركًا لتحرير مجلة الفكر الجديد قبل مبايعته للإخوان ثم عضوًا بمكتب الإرشاد ورئيسًا لقسم الدعوة

١- هذا الدين

٢- المستقبل لهذا الدين

٣- معالم في الطريق

٤- في ظلال القرآن

ز- معاركه الأدبية:

وقد اشترك سيد قطب واشتبك في معارك أدبية كثيرة إما ردًا على ناقديه وإما ناقدًا لغيره خصوصًا متابعته لنصرة كاتبه المفضل العقاد، ومن هذه المعارك.

معاركه: مع الدكتور مندور - دريني خشبة - محمد سعيد العريان - صلاح ذهني - عبد المنعم خلاف خليل هنداوي - إسماعيل مظهر- طه حسين ومعركته الشهيرة مع العقاد علي صفحات البلاغ الأسبوعي.. وذلك حول مقدمة ديوان شعر نشره العقاد عام ١٩٢٠ م (ديوان أعاصير مغرب) وانتقاده لديوان العقاد (وحي الأربعين) .

صدرت الأجزاء الأولى من الطبعة الأولي في سورة كتيبات صغيرة في بداية الخمسينات وبعد مبايعة قطب لجماعة الإخوان وانتمائه إلي صفوفهم.

كان ذلك خطوة طبيعية بعد إصداره لكتابين التصوير الفني في القرآن الكريم

ومشاهد القيامة في القرآن الكريم... ثم اعتقل المؤلف للمرة الأولى فأنجز ما أكمل السابقة حتى أربعة أخماس المصحف ثم أفرج عنه فعاد لإتمام ما بدا وتنقيحه حتى أن حجم الكتاب قد تضاعف في الطبقة الشرعية الأخيرة ذلك أن سيد قطب قد اعتضد بتفسير ابن كثير فنقل عنه ما يساوي ثلث حجم الكتاب.

ولقد كتب المؤلف كتابه بروح التيسير ومحاولة الولوج إلى عقول وقلوب أجيال طالما ابتعدت عن التفسير بسبب مطولات السابقين وازدحامها بما يصرف عن القرآن بغير داع لذلك جاء أسلوب الكتاب خاليًا من التعقيد والألفاظ المهجورة كذلك تجافى عن الإسرائيليات والروايات الضعيفة بتفسير القرآن وأظن أن المؤلف قد التزم هذا المنهج تدون خواطره ليصبح الكتاب مرجعًا لأعضاء الجماعة في مجال التفسير كما للجماعة مرجعًا في الفقه هو كتاب فقه السنة للمرحوم الشيخ سيد سابق.. والكتاب بعد ذلك أصبح مرجعا حتى للمؤلف رحمة الله فقد استخرج منه القدر الأكبر من كتاب (معالم علي الطريق) وكذلك استخرج آخرون كثيرون منه ما أثبت مكانة الكتاب...غير أن الكمال ليس من صفة البشر خصوصًا إذا لم يشاور عقولًا أخرى فوقع في الكتاب ما شابه بعيوب علمية ليست هينة علي التوحيد وعلم الفقه وهكذا فالكتاب غني بالخيرات رغم ما حواه مما يحتاج إلى تصحيح أو إزالة.

المؤلف والكتاب البيئة العامة التي ولد فيها الظلال:

وحينما نذكر البيئة: نرى معالم مسيطرة لا يستطيع الكاتب أن يتجرد منها.

١- امة إسلامية ممزقة فلح الاستعمار في تمزيق أوصالها وتركها أشلاء لا روح فيها.

٢- حالة حضارية متردية اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا لا تدل من قريب أو بعيد على الإسلام في شيء.

٣- عروشٌ تتولى السلطة بالمكيدة والقهر وتستقوي على شعوبها بالاستعمار والقوى الخارجية.

٤- مؤسسة دينية طال عليها الأمد فغفلت عن واحدة من أبرز وظائفها وهي وظيفة تكريم الإنسان وتحرير إرادته، فمنذ قيادتها لمقاومة نابليون وفريزر والانتصار عليهما استسلمت لفساد الداخل وانشغلت بالألفاظ دون المعاني فتركت المقاصد، واشتبهت عليها الوسائل.

٥- دعوات دينية متعددة سقطت في ظلام الانتقاء دون تحقيق ففقدت أولويات العمل الدعوى بين الاكتفاء بالشعائر أو الحرص على السنة أشد من الحرص على الفرائض أو التقليد المذهبي دون نظر لأبعاد الواقع المستجد وأخيرًا اختزال الأولويات في الوقوف طرفًا في النزاع السياسي عند البعض، وتقديم الشعائر عند البعض والإصرار على قصور عقدي خاص عند البعض مع تباعد وتضاد بين الجميع وربما في أحسن الأحوال يصبح سير الجماعات في خطوة متوازية لا تلتقي ولا تصل وإن كان أصحاب هذه الخطوط المتوازية يعلنون غير واقع العمل إذ يعلنون التزامهم بما نقل عن السيد رشيد رضا من قوله «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا عليه» .

فهذا من ناحية القول والإعلان كلام جيد، ولكن لا يثبت للواقع العملي لأن الجميع دون استثناء لا يصبرون على تعاون إلا إذا كان في لوائحهم ولا يقتدون بقيادات غيرهم... فما يعلن قول دون فعل.

ثانيًا: البيئة الخاصة للظلال:

والبيئة الخاصة تتكون من الصانع والمصنوع أو المؤلف ذاته والكتاب

أ. فالمؤلف فوق ما أشرنا في التعريف به نريد أن نذكر بعض معالم حالته

الخاصة:

١- رجل تبتل فانقطع عن الزواج بعد قصة حب لم تتم فبقى أعزبًا دون زواج.

٢- حالة صحية قاسية بسبب مرض صدري مزمن.

٣- شد السلطة له وجذبه نحوها دون التوافق مع فكره.

٤- سجون واعتقالات ومعاملات لا يتصور إنسانية فاعليها فضلًا عن إسلامهم وإيمانهم.

ب. بنية الكتاب:

١- الكتاب نموذج جديد مبتكر أقدم صانعه عليه بفكرته العامة وأدواته الأدبية المتمكن منها.. دون التمكن من أدوات التخصص الغريب.

٢- أدرك المؤلف ذلك فقام بمراجعة للطبعة الأولى والثانية فاستدرك أشياء وأضاف إضافات واسعة.

ولو وجد فرصة أتصور أنه قد راجع الكتاب مرتين على الأقل فخلصه من هذه العيوب المشار إليها والتي لولاها لما طال اللوم من الكتاب شيئًا.

٣- الكتاب يصنع وراء جدران السجون حيث لا مراجع ولا مناخ ولا مزاج.

التعليق على الكتاب

والرأي -عندي- في كلمات سريعة

أولًا: إن «ظلال القرآن» إذا ضبطت فيه خواطر المؤلف حول آيات العقيدة وآيات الدعوة، والجهاد كسبت التفاسير القرآنية تفسيرًا هو نسيج وحده.. نسيج بمثابة البيان المعاصر الأول حول القرآن الكريم.

ثانيًا: إن أبناء القرن الـ٢١ في مسيس الحاجة إلى كتب «حول القرآن الكريم» لا أجد ما أصفه لهم حتى الآن غير الظلال مع التوصية بالتوقف فيما تفرد به المؤلف تحت مصطلحات الجاهلية والحاكمية والحركية فضلًا عن ما يلمحه القارئ في الأحكام المطلقة التي تفضي إلى ضرورة مفاصلة المجتمع ومواجهته ولو بالعنف.

ثالثًا: إن ما أنجزه سيد قطب في الظلال بعد تنحية ما أشرت إليه يعتبر منهجًا وأسلوبًا دعويًا بليغًا هو أصلح الأساليب للترجمة والعرض على غير المسلمين.

رابعًا: لا يستطيع أحد أن ينكر أن سيد قطب -رحمه الله- قد طاوعه قلمه، أو طاوع هو قلمه فإذا هو بعيد عما استقر عليه علماء العقيدة وعلماء الفقه، بل يكاد يفارقهم وإذا كان المفسرون السابقون يستأنسون فيما يدونونه في العقيدة والفقه بما استقر عليه أهل العلم ويستشهد بعضهم ببعض فذلك لأنه ليس من السهل أن ينفرد أحد البشر بوضع معنى قطعي لحكم شرعي أو مرتكز عقيدي فتلك خاصية من خواص الأنبياء.

خامسًا: إن ظلال القرآن هو المحاولة الأولى لصياغة لمعاني القرآن صياغة أدبية يسيرة بعيدة عما سيطر على التفاسير من غرائب الألفاظ.

سادسًا: تميز الظلال أيضًا بتعليم القارئ كيف يتحول القرآن إلى دليل عمل وخريطة حركة وإعمار حتى لا يبقى معاني وأفكار.

سابعًا: كذلك قد تنبه الظلال إلى قيمة الوحدة الموضوعية في كل سورة من سور القرآن.

ثامنًا: وقد خلى من الإطناب والإسرائيليات والخوض والتعمق في اللغويات مما جعله يسيرًا.

تاسعًا: قد استعان المؤلف كثيرًا بتفسير ابن كثير، مما ضخَّم حجم كتابه، ولو

تجنب هذا الاقتباس لكان الظلال أفضل حجمًا.

عاشرًا: بقى أن نقول إن المؤلف قد أنجز هذا العمل العظيم ولكن دون التفات إلى خلاصات علم التوحيد وعلم الفقه: وأدوات هذين العلمين: الأصل والمنطلق لأي تفسير ولو علمنا أن هذا القصور ظاهر واضح في مظانه من كتاب الظلال لأدركنا حق المؤلف وقيمة الكتاب...

*****

obeikan.com